

الرؤية

عناصر الموضوع

٣٣٨	مفهوم الرؤية
٣٣٩	الرؤية في الاستعمال القرآني
٣٤٠	الألفاظ ذات الصلة
٣٤٢	رؤية الله تعالى
٣٤٨	أنواع الرؤية في القرآن
٣٥٢	العالم غير المرئي
٣٥٧	الرؤية الوهمية
٣٦٠	رؤية النعم
٣٦٥	رؤية الأدلة العلمية والجنائية
٣٧١	الرؤية والاعتبار
٣٧٨	رؤية ثواب الأعمال
٣٨٢	رؤية النعيم والعذاب
٣٨٦	أثر الرؤية على النفس

مفهوم الرؤية

أولاً: المعنى اللغوي:

الرؤية لغة مأخوذة من الفعل رأى، قال ابن فارس: «(رأى) الراء والهمزة والياء أصل يدل على نظر وإبصار بعين أو بصيرة»^(١)، أي: أن الرؤية لغة هي: إدراك المرئي، وذلك أضرب بحسب قوى النفس:

الأول: إدراك المرئي بالحاسة وما يجري مجراها، نحو قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ [التكاثر: ٦-٧].

والثاني: إدراك المرئي بالوهم والتخيل، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

والثالث: إدراك المرئي بالتفكير، نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨].

والرابع: إدراك المرئي بالعقل، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(١١) [النجم: ١١]^(٢).

ورأى إذا عدي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم نحو قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦]^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

هي: المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة^(٤).

ويمكن تعريف الرؤية اصطلاحاً بأنها: عبارة عن الإدراك بالبصر للأشياء الظاهرة والمحسوسة، أو بالبصيرة، وهي نور في القلب يدرك به الحقائق والمعقولات، والأمور المعنوية، حين يكون القلب مشحوناً باليقين والإيمان^(٥).

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٤٧٢.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٥.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٣.

(٤) التعريفات، الجرجاني ص ١٠٩.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٧، تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥٤١.

الرؤية في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (رأى) في القرآن الكريم (٣٢٧) مرة، يخص موضوع (الرؤية) (٣١٦) مرة^(١).

والصيغة التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩٣	﴿ثَلَمًا جَنَّ عَلَيْهِ إِلِيلُ رَمَا كَوَكَبًا قَالِ هَذَا رَأَيْي﴾ [الأنعام: ٧٦]
الفعل المضارع	٢٢٠	﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم: ٢٤]
صفة مشبهة	١	﴿وَكُرْ أَهْلَكَ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًا﴾ [مريم: ٧٤]
مصدر سماعي	٢	﴿يَرَوْنَهُمْ فَيَقِيلُهُمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣]

وجاءت الرؤية في القرآن على ثلاثة أوجه^(٢):

- الأول: النظر والمشاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المتافقون: ٤]، يعني: نظرت إليهم.
- الثاني: العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، يعني: بما أعلمك الله.
- الثالث: الاعتبار، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]، يعني: أولم يعتبروا بها.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٨٠-٢٨٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٤٤-٢٤٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ النظر:

النظر لغة:

هو تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته^(١). والنظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام، وما كان بالبصائر كان للمعاني^(٢).

النظر اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرؤية والنظر:

يشتركان في أنهما: عبارة عن الإدراك بالبصر للأشياء الظاهرة والمحسوسة، أو بالبصيرة في الأمور المعنوية، وقد يكون في كل منهما رؤية مجردة للأشياء أو مع التأمل والفحص.

٢ البصر:

البصر لغة:

الإدراك بالعين التي هي حاسة الرؤية^(٣)، ويطلق على العلم، فيقال: بصرت بالشيء: إذا صرت به بصيرًا عالمًا^(٤).

البصر اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرؤية والبصر:

أن الرؤية تتم بواسطة حاسة البصر، وعلى قدر سلامة البصر تكون الرؤية.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨١٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٧٧/٥.

(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٠/١٩٦.

(٤) مقاييس اللغة ١/٢٥٣.

٣ التأمل:

التأمل لغة:

التثبت، وتأملت الشيء أي: نظرت إليه مستبثاً له^(١).

التأمل اصطلاحاً:

تدبر الشيء وإعادة النظر فيه مرة بعد أخرى ليتحققه^(٢)، التأمل: هو استعمال الفكر، والتدبر: تصرف القلب بالنظر في الدلائل^(٣).

الصلة بين الرؤية والتأمل:

أن الرؤية والتأمل يشتركان في إدراك الأشياء بالبصيرة إلا أن الرؤية قد تكون مجردة عن التأمل كما في الإدراك بالبصر.

٤ الرؤيا:

الرؤيا لغة:

ما يرى في المنام، أي: ما رأيته في منامك، وهي الرؤى، ورأيت عنك رؤى حسنة: حلمتها، وأراى الرجل: إذا كثرت رؤاه، وهي أحلامه، جمع الرؤيا^(٤)، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]^(٥).

الرؤيا اصطلاحاً:

ما يراه النائم في المنام^(٦).

الصلة بين الرؤية والرؤيا:

أن الرؤية هي إدراك الأشياء في اليقظة، والرؤيا إدراك الأشياء في المنام.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢٧/ ١١.

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٨٩.

(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص ٢٨٧.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢٩٧/ ١٤.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٥.

(٦) انظر: الكليات، الكفوي ص ٤٠٤، معجم لغة الفقهاء، محمد رواس وحامد قنيبي ص ٢٢٨.

رؤية الله تعالى

تحدث القرآن الكريم عن جانبين يتعلقان برؤية الله تعالى، أحدهما: رؤية الله تعالى لعباده، والثاني: رؤية العباد لله تعالى، وبيانها في النقاط الآتية:

أولاً: رؤية الله تعالى لعباده:

إن رؤية الله تعالى لعباده تكون لأعمالهم في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: ثم جعلناكم، أيها الناس، خلائف من بعد هؤلاء القرون الذين أهلكناهم لما ظلموا، تخلفونهم في الأرض، وتكونون فيها بعدهم» ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، يقول: لينظر ربكم أين عملكم من عمل من هلك من قبلكم من الأمم بذنوبهم وكفرهم بربهم، تحتذون مثالهم فيه، فتستحقون من العقاب ما استحقوا، أم تخالفون سبيلهم فتؤمنون بالله ورسوله وتقرون بالبعث بعد الممات، فتستحقون من ربكم الثواب الجزيل»^(١).

«فقد أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم

(١) جامع البيان ٣٨/١٥.

استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)^(٢)».

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

والمعنى: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: «يرى ذلك بوقوع منكم؛ لأن الله جل وعز لا يجازيهم على ما يعلمه منهم من خطيئاتهم التي يعلم أنهم عاملوها لا محالة، إنما يجازيهم على ما وقع منهم»^(٤).

وفي قول موسى عليه السلام ذلك لقومه أمران: أحدهما: الوعد بالنصر والاستخلاف في الأرض، والثاني: التحذير من الفساد فيها؛ لأن الله تعالى ينظر كيف يعملون^(٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم ٢٧٤٢، ٤/٢٠٩٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٢١.

(٤) معاني القرآن وإعراجه، الزجاج ٣٦٧/٢.

(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردى ٢٥٠/٢.

الجهاد معك: ﴿اعْمَلُوا﴾، لله بما يرضيه، من طاعته، وأداء فرائضه، فسيرى الله إن عملتم عملكم، ويراه رسوله والمؤمنون، في الدنيا، وستردون يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلايتكم، فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها ﴿فَيَتَنَبَّأُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بما كنتم تعملون، وما منه خالصاً، وما منه رياء، وما منه طاعة، وما منه لله معصية، فيجازيكم على ذلك كله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته^(٣).

ورؤية الله تعالى لأعمال العباد كما تكون في الدنيا تكون كذلك في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: ٤٠].

أي: وإن عمل كل عامل سوف يراه الله يوم القيامة، فيجازيه عليه الجزاء الأوفى من خير أو شر، وهو المجازي جميع عباده بأعمالهم صالحهم وطالحهم^(٤).

وبهذا يتبين أن محل نظر الله تعالى هو القلوب والأعمال، وليس الصور والأموال؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى

وقال تعالى في المنافقين: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «نزلت في المنافقين، يعتذرون إليكم إذا رجعت من غزوة تبوك، فلا تعذروهم فليس لهم عذر، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون، فقال الله تعالى: قل لا تعتذروا لن نصدقكم، قد أخبرنا الله أنه ليس لكم عذر، وسيرى الله عملكم ورسوله إن عملتم خيراً وتبتم من تخلفكم، ثم تردون بعد الموت إلى عالم الغيب والشهادة، فيخبركم بما كنتم تعملون في السر والعلانية»^(١)؛ لأنه سبحانه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمايرهم وأعمالهم^(٢).

وقال تعالى في المتخلفين عن الجهاد من المؤمنين: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا يَسِيرُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

والمعنى: «قل يا محمد لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن

(٣) جامع البيان، الطبري ٤٦٢/١٤.

(٤) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧١٧٢/١١، الجواهر الحسان، الشعالي ٣٣١/٥.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/٢٨٩.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٩٤/٣.

قلوبكم وأعمالكم^(١).

والمعنى: إن الله لا ينظر نظر اعتبار إلى (صوركم)؛ إذ لا اعتبار بحسنها وقبحها (وأموالكم)؛ إذ لا اعتبار بكثرتها وقلتها، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وإلى ما فيها من اليقين والصدق، والإخلاص، وقصد الرياء، والسمعة، وسائر الأخلاق الرضوية، (وأعمالكم) من صلاحها وفسادها، فيجازيكم على وفقها^(٢).

قال النووي: «ومعنى نظر الله هنا مجازاته ومحاسبته، أي: إنما يكون ذلك على ما في القلب دون الصور الظاهرة، ونظر الله رؤيته محيط بكل شيء، ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب»^(٣).

ورؤية الله تعالى لعباده هي رؤية شاملة وليست محصورة برؤية الأعمال والقلوب، بل تشمل الأجساد وخفايا النفوس، ولكن الرؤية التي يترتب عليها الثواب والعقاب تكون لأعمالهم في الحياة الدنيا، وأن محل نظر الله تعالى هو القلوب والأعمال، وليس الصور والأموال.

ثانيًا: رؤية العباد لله تعالى:

ثبتت رؤية العباد لله تعالى في الآخرة بالكتاب والسنة والإجماع:
أولًا: من القرآن الكريم:
قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ تَائِبَةً ۖ﴾^(٤)
﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ بِأَسْرَةٍ ۖ﴾^(٥)
[القيامة: ٢٢-٢٤].

قال ابن عباس وأكثر المفسرين: «تنظر إلى ربها عيانًا بلا حجاب، قال الحسن: حق لها أن تنظر إلى الخالق سبحانه وتعالى، وروي عن مجاهد وأبي صالح أنهما فسرا النظر في هذه الآية: بالانتظار، قال مجاهد تنتظر من ربها ما أمر لها به، وقال أبو صالح: تنتظر الثواب من ربها»^(٤).

قال ابن جرير الطبري: «وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب القول الذي ذكرناه عن الحسن وعكرمة، من أن معنى ذلك تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٥).

وقال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ تَائِبَةً﴾ من النضارة، أي: حسنة بهية مشرقة مسرورة إلى ربها ناظرة، أي: تراه عيانًا، كما رواه البخاري في صحيحه: (إنكم سترون

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم ٢٥٦٤، ١٩٨٧/٤.

(٢) مرقاة المفاتيح، علي ملا قاري ٨/ ٣٣٣١.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٢١.

(٤) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٧٢.

وانظر: معاني القرآن وإعرايه، الزجاج ٥/ ٢٥٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٠٧.

(٥) جامع البيان ٢٤/ ٧٣.

أمثالها، قاله ابن عباس.
الثالث: أن الحسنى حسنة مثل حسنة،
والزيادة مغفرة ورضوان، قاله مجاهد.
والرابع: أن الحسنى الجزاء في الآخرة
والزيادة ما أعطوا في الدنيا، قاله ابن زيد.
والخامس: أن الحسنى الثواب، والزيادة
الدوام، قاله ابن بحر.
ويحتمل سادساً: أن الحسنى ما يتمنونه،
والزيادة ما يشتهونه^(٣).

قال أبو جعفر الطبري: «يعني: جل ثناؤه
بقوله: ﴿وَلَا يَزَهُقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، لا
يغشى وجوههم كآبة، ولا كسوف، حتى
تصير من الحزن كأنما علاها قتر. والقترة:
الغبارة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، ولا هوان ﴿أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، يقول: هؤلاء الذين وصفت
صفتهم، هم أهل الجنة وسكانها ومن هو فيها
﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، يقول: هم فيها ما كانوا
أبدًا، لا تبديد، فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم
بمخرجين فتنغصص عليهم لذتهم^(٤).
وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾
[يونس: ٢٦].

قال ابن عباس: للذين قالوا: لا إله إلا
الله، الجنة وزيادة، وهي النظر إلى وجه
الله في قول أبي بكر الصديق، وأبي موسى
الأشعري، وحذيفة، وابن عباس، وقتادة،
(٣) النكت والعيون ٢/٤٣٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/٧٢، معاني
القرآن وإعراجه، الزجاج ٣/١٥.

ريكم عياناً^(١)، وقد ثبتت رؤية المؤمنين
لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث
الصحيح من طرق متواترة عند أئمة الحديث
لا يمكن دفعها ولا منعها^(٢).
وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى
وَزِيَادَةٌ وَلَا يَزَهُقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
[يونس: ٢٦].

قال الماوردي: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى
وَزِيَادَةٌ وَلَا يَزَهُقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣) وَالَّذِينَ كَسَبُوا
السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ
اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ زَلِّيلٍ
مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٤)
وقوله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ يعني:
عبادة ربهم ﴿الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ فيه خمسة
تأويلات:
أحدها: أن الحسنى الجنة، والزيادة
النظر إلى وجه الله تعالى، وهذا قول أبي
بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وأبي موسى
الأشعري.

والثاني: أن الحسنى واحدة من
الحسنات، والزيادة مضاعفتها إلى عشر
(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد،
باب قول الله تعالى: ﴿وَجُوهُهُمْ نَازِبَةُ الْعَرْشِ﴾^(٢) إِلَى
رَبِّهَا نَازِبَةً^(٣)، رقم ٧٤٣٥، ٩/١٢٧، من
حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٢٨٧.
(٣) النكت والعيون ٢/٤٣٢.

وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف^(٣)..

ثانيًا: من السنة النبوية الشريفة: وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك:

ما رواه صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسنِي وَزِيَادَةٍ﴾ وقال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم)^{(٤)(٥)}.

وما رواه جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلة -يعني: البدر-

- (٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٩.
(٤) سبق تخريجه قريبًا.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٩.

والضحاك، والسدي، ونحو ذلك فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجننا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)، ثم تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسنِي وَزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦] (١)(٢).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].»

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٍ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدود والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم، بل بفضل ورحمة،

- (١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١٦٣.
(٢) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٤.

ثالثاً: الإجماع:

قال ابن كثير بعد أن ساق تفسير الآيات السابقة: «وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهذه الأنام، ومن تأول ذلك بأن المراد بـ(إلى) مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري عن منصور عن مجاهد ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها، رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد، وكذا قال أبو صالح أيضاً، فقد أبعد هذا القائل النجعة وأبطل فيما ذهب إليه، وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُولُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال الشافعي: ما حجب الكفار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل، ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما دل عليه سياق الآية الكريمة^(٣).

فقال: (إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا)، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]^(١).

وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: (هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحب؟)، قالوا: لا يا رسول الله قال: (فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحب؟)، قالوا: لا، قال: (فإنكم ترونه كذلك، يحشر الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبّع فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهرائي جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل)^(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم ٥٥٤، ١١٥/١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم ٨٠٦، ١٦٠/١.

ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم ١٨٢، ١٦٣/١.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٨٧/٨.

أنواع الرؤية في القرآن

إن أنواع الرؤية في القرآن ثلاثة هي: الرؤية البصرية، والرؤية العلمية، والرؤية المنامية، وسيتم توضيح ذلك في المطالب الآتية:

أولاً: الرؤية البصرية:

وردت الرؤية البصرية في القرآن الكريم بثلاثة ألفاظ، وهي:

١. لفظ (رأى) ومشتقاتها.

وقد وردت هذه الرؤية بمعنى الرؤية البصرية للتأمل والاعتبار، ومنها:

﴿النظر في ملكوت السموات والأرض﴾.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ أَوْ يُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝١﴾ [سبأ: ٩].

أي: ألم يتأملوا ويعلموا أن الذي خلق السماء والأرض قادر على أن يبعثهم، وقادر أن يخسف بهم الأرض أو يسقط السماء عليهم كسفاً^(١)؛ لأن رؤية مخلوقات الله في السماء والأرض من شأنها أن تهديهم لو تأملوا حق التأمل، والاستفهام للإنكار على انتفاء تأملهم فيما بين أيديهم وما خلفهم

من السماء والأرض، أي: من المخلوقات العظيمة الدالة على أن الذي قدر على خلق تلك المخلوقات من عدم هو قادر على تجديد خلق الإنسان بعد العدم^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝٧٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِرَ فِي بَرِيٍّ ۝٧٨﴾ ﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٩﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٨].

فالمراد من الرؤية في الآيات الرؤية البصرية بالعين، والمعنى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقهما، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]^(٣).

﴿النظر في إحياء الأرض بالغيث﴾.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/١٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/٢٥٩،

وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/١١٨.

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/٢٤٢.

الثاني: لأنه يرى في الثانية من سير كواكبها واختلاف بروجها ما لا يراه من الأولى، فيتحقق أنه لا فطور فيها.

وتأول قوم بوجه ثالث: أنه عنى بالمرتين قلباً وبصراً^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ وَبِصِرُونَ﴾ [القلم: ٥].

والمعنى: فستري يا محمد، ويرى مشركو قومك الذين يدعونك مجنوناً^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ﴾^(٦) أي: ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحق وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ﴾^(٦)، أي: أيكم المفتون بالجنون^(٤).

والخلاصة: ستبصر ويبصرون غلبة الإسلام، واستيلاءك عليهم بالقتل والأسر، وهيتك في أعين الناس أجمعين، وصيرورتهم أذلاء صاغرين^(٥).

٣. لفظ (نظر) ومشتقاتها.

وقد وردت في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

أي: وزينا السماء بالكواكب لمن نظر

السَّمَاءَ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحج: ٦٣].

والمراد هو الرؤية الحقيقية، لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين، واخضرار النبات على الأرض مرئي، وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى^(١).

٢. لفظ (بصر) ومشتقاتها.

وردت الرؤية البصرية بلفظ (البصر) ومشتقاتها في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَاتَّجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾^(٢) ثُمَّ اتَّجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ [الملك: ٣-٤].

قال الماوردي: ﴿فَاتَّجِعِ الْبَصَرَ﴾ قال قتادة: معناه: فانظر إلى السماء، ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: من شقوق، قاله مجاهد والضحاك.

الثاني: من خلل، قاله قتادة.

الثالث: من خروق، قاله السدي.

الرابع: من وهن، قاله ابن عباس.

﴿ثُمَّ اتَّجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: انظر إلى السماء مرة بعد أخرى، ويحتمل أمره بالنظر مرتين وجهين:

أحدهما: لأنه في الثانية أقوى نظراً وأحد بصرًا.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/٢٤٦.

(٢) النكت والعيون ٦/٥١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٥٣٠.

(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٩/٢٧٢، فتح القدير، الشوكاني ٥/٣١٩.

(٥) انظر: تفسير المراغي ٢٩/٢٩.

إليها وأبصرها^(١).

والمعنى: أي ولقد خلقنا في السماء نجومًا كبارًا، ثوابت وسيارات، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة، وآياتها الباهرة التي يحار الفكر في دقائق صنعتها، وقدرة مبدعها^(٢).

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ يَدَهُ إِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

والمراد: الرؤية البصرية^(٣).

والمعنى: أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَءٍ﴾ [النمل: ١٢].

قال ابن عباس: ﴿مِنْ غَيْرِ سَوَءٍ﴾ يعني: من غير برص، ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول، وكذا قال مجاهد وغير واحد^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُخَكَّمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ

[محمد: ٢٠].

أي: أن المنافقين يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون نظرًا شديدًا، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت، وإنما ذلك لأنهم منافقون، يكرهون القتال^(٥).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

ومعنى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعا تامًا؛ لأنهم ناكسو الرؤوس، والعرب تصف الذليل بغض الطرف، كما يستعملون في ضده حديد النظر إذا لم يتهم بريئة، فيكون عليه منها غضاضة، وقال قتادة والسدي والقرطبي وسعيد بن جبير: يسارقون النظر من شدة الخوف، وقيل: المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر، وقال يونس: ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء، أي: ينظرون بطرف خفي، أي: ضعيف من الدل والخوف، ونحوه عن الأخفش، وقال ابن عباس رضي الله عنه: بطرف ذابل ذليل، وقيل: أي: يفرعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب^(٦).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٧٧.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٤/ ١٣.

(٣) انظر: الكشف، الزمخشري ٣/ ٣١٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٩.

(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٤/ ١٢٦.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤٥/ ١٦.

ثانيًا: الرؤية العلمية:

إن الرؤية العلمية في القرآن وردت في العديد من الآيات منها:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٨].

﴿وَأَرِنَا﴾ أي: علمنا وبصّرنا مناسكنا، أي: شرائع ديننا وأعلام حجنا^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ [النساء: ١٠٥].

قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ معناه: بما أعلمك الله، وسمي ذلك العلم بالرؤية؛ لأن العلم اليقيني المبرأ عن جهات الريب يكون جاريًا مجرى الرؤية في القوة والظهور^(٢).

وقال تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِرِّيكُمْ ءَايَاتِهِ ۖ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٣﴾ [النمل: ٩٣].

وهذه الإراءة في الآيتين المراد بها الإراءة العلمية^(٣).

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٨١.

وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٦٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١١.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٢٠، في

قال ابن جرير: «إن الله عز وجل وعد نبيه صلى الله عليه وسلم أن يري هؤلاء المشركين الذين كانوا به مكذبين آيات في الآفاق، وغير معقول أن يكون تهددهم بأن يريهم ما هم راءوه، بل الواجب أن يكون ذلك وعدًا منه لهم أن يريهم ما لم يكونوا رأوه قبل من ظهور نبي الله صلى الله عليه وسلم على أطراف بلدهم وعلى بلدهم، فأما النجوم والشمس والقمر، فقد كانوا يرونها كثيرًا قبل وبعد، ولا وجه لتهددهم بأنه يريهم ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يقول جل ثناؤه: أري هؤلاء المشركين وقائعنا بأطرافهم وبهم حتى يعلموا حقيقة ما أنزلنا إلى محمد، وأوحينا إليه من الوعد له بأنا مظهر ما بعثناه به من الدين على الأديان كلها، ولو كره المشركون، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يقول تعالى ذكره: أولم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على كل شيء مما يفعله خلقه، لا يعزب عنه علم شيء منه، وهو مجازيهم على أعمالهم، المحسن بالإحسان، والمسيء جزاءه^(٤).

ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٢٥.

(٤) جامع البيان ٢١/ ٤٩٣.

العالم غير المرئي

بين القرآن الكريم أن في الوجود أشياء لا تدرکها أبصارنا، ولا نستطيع أن نراها بأعيننا، ومن ذلك:

أولاً: الملائكة:

إن الملائكة أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسکنها السموات، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون^(١).

قال ابن عاشور عن الملائكة: «أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرهم السماوات، ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض»^(٢).

«ومن الأصول المعتمدة في القرآن: الإيمان بالملائكة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ءَامِنٍ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال، وأخرى على طريق التفصيل، أما بالإجمال فقوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾، أما بالتفصيل فمنها: ما يدل على كونهم رسل الله، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

ومنها: أنها مدبرات لهذا العالم، قال تعالى: ﴿فَالْمَقْسَدُ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٤-٥].

وقال تعالى: ﴿وَالصَّغْدُ صَفًا﴾ [الصافات: ١].

ومنها: حملة العرش، قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

ومنها: الحافون حول العرش، قال: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].

ومنها: خزنة النار، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ومنها: الكرام الكاتبون، قال تعالى: ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لحَفَظِينَ﴾ [الأنعام: ١١-١٢].

ومنها: المعقبات، قال تعالى: ﴿مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشیاطين^(٣).

والقوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

أي: لو أرسلنا إليهم ملكًا لم نرسله إلا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٨٤/٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/٢٥٠.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/٤٤٥.

[الذاريات: ٢٤-٢٥].

وكذلك أتت لوطاً عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر: ٦١-٦٢].

فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيْسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩].^(٣)

ولم تر الملائكة على حقيقتها التي خلقها الله عليها إلا جبريل عليه السلام، فقد رآه النبي عليه السلام على حقيقته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٣-١٤].

يعني: رأى جبريل في صورته التي خلق عليه نازلاً من السماء نزلة أخرى، وذلك أنه رآه في صورته مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء.^(٤)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين)^(٥).

وعن زر بن حبیش، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ

(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/٢٣١.

وانظر: الوجيز، الواحدي ص ٣٤٦، معالم التنزيل، البغوي ٢/١١١، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/١٥٥.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/٣٠٥.

وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/٥١١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، فغفر له ما تقدم من ذنبه، رقم ٤٨٥٥، ٦/١٤٠.

في صورة إنسان؛ لأن الملك فيما قيل لو نظر إليه ناظر على هيئته لصعق، وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس^(١).

فقد كان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه، فعن أبي هريرة، وأبي ذر رضي الله عنه، قالوا: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهرائي أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل... ثم قال: (لا والذي بعث محمداً بالحق هدىً وبشيراً، ما كنت بأعلم به من رجل منكم، وإنه لجبريل عليه السلام نزل في صورة دحية الكلبي)^(٢).

وجاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين على قول في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٦﴾﴾ [ص: ٢١]؛ لأنهما وردا على داود، وهما ملكان في صورة رجلين يختصمان إليه، ومنه أن الملائكة أتت إبراهيم في صورة الضيفان: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/٢٣١.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام، رقم ٤٩٩١، ٨/١٠١. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١١١١، ٣/١٠٤.

﴿١٨﴾ [النجم: ١٨]. قال:

(رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح) (١).

أما في الآخرة فإن المؤمنين يرون

الملائكة، قال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ

حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿٧٥﴾ [الزمر: ٧٥].

والمعنى: أن الرائي يراهم بهذه الصفة

في ذلك اليوم، حال كونهم مسبحين لله

متلبسين بحمده، وقيل: معنى يسبحون:

يصلون حول العرش شكراً لربهم،

والحافين: أي: محققين حول العرش،

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بين العباد بإدخال

بعضهم الجنة وبعضهم النار (٢)، ﴿وَتَرَى

الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وترى أيها الرائي الملائكة

محيطين بجوانب العرش، قائمين بجميع

ما يطلب منهم، فيسمع لحفوفهم صوت

التسبيح والتقديس، ويصلون حول العرش،

شكراً لربهم وتنزيهاً له عن كل نقص (٣).

وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿جَنَّتُ

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

وَذُرِّيَّتِهِمُ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٢﴾

سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٣٣﴾

[الرعد: ٢٣-٢٤].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَزَعُ

الْأَكْبَرُ وَنَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا

يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

[الأنبياء: ١٠٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي

قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ

الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا

بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ

أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ

فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

تَدْعُونَ ﴿٣٦﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

وأما عن رؤية المجرمين للملائكة، فقد

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى

لَهُمْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾

[الفرقان: ٢٢].

«يقول تعالى ذكره: يوم يرى هؤلاء

الذين قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَنْزِلْ

رَبَّنَا﴾ بتصديق محمد الملائكة، فلا بشرى

لهم يومئذ بخير ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾

يعني: أن الملائكة يقولون للمجرمين:

حجراً محجوراً، حراماً محرماً عليكم اليوم

البشرى أن تكون لكم من الله» (٤).

(٤) جامع البيان، الطبري ١٩/٢٥٤.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء

الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة

في السماء: آمين، فوافقت أحدهما الأخرى،

غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم ٣٣٣٢، ٤/١١٥،

ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب:

(ولقد رآه نزلة أخرى)، رقم ١٧٤، ١/١٥٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/٥٤٩.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٤/٣٩.

في قوله تعالى: ﴿يَنْفِقُ آدَمُ لَا يَفْهَمُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمَانِ إِنَّهُ يَنْدِرُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِيهِمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَنْدِرُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ جنوده، قال مجاهد: يعني: الجن والشياطين، ابن زيد: (قبيلة) نسله، وقيل: قبيلة، من حيث لا ترونهم، قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن الجن لا يرون، لقوله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِيهِمْ﴾ وقيل: جائز أن يروا؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى (٥).

قال النحاس: «في قوله: ﴿إِنَّهُ يَنْدِرُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِيهِمْ﴾» [الأعراف: ٢٧].

يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي ليكون ذلك دلالة على نبوته؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقاً لا يرون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم، وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلى الله عليهم وسلم (٦)؛ لأن الله تعالى خلق في عيون الجن إدراكاً، فهم به يرون الإنس؛ والإنس لا يرونهم؛ لأنه تعالى لم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس (٧).

«وأعلم الله عز وجل أن الوقت الذي يرون فيه الملائكة هو يوم القيامة، وأن الله قد حرمهم البشرى في ذلك الوقت» (١).

المعنى في هذه الآية: أن الكفار لما قالوا ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتَ أَوْ نَرِ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢].

أخبر الله تعالى أنهم يوم يرون الملائكة إنما هو يوم القيامة، وقد كان أول الآية يحتمل أن يريد يوم تفيض أرواحهم، لكن آخرها يقتضي أن الإشارة إلى يوم القيامة، ومعنى هذه الآية أن هؤلاء الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدر الله في ذلك، فإنهم يوم يرون الملائكة هو شر لهم، ولا بشرى لهم، بل لهم الخسار ولقاء المكروه يومئذ (٢).

ثانياً: الجن:

الجن مخلوقات نارية لا ترى، أصل خلقهم من النار (٣)، من شأنها التشكل بأشكال مختلفة (٤).

وقد بين الله تعالى أن الجن لا ترى

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٦٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٠٦.

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد قنبي ص ١٦٦.

(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٨٦.

وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٧٦.

(٦) إعراب القرآن، النحاس ٢/ ٥٠.

(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٩٤.

كما تدل الآية على أن الإنس لا يرون الجن على العموم في ذلك؛ لأن قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يتناول أوقات الاستقبال من غير تخصيص^(١).

ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن عفريتاً من الجن جعل يفتك علي البارحة، ليقطع علي الصلاة، وإن الله أمكنني منه فدعته، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد، حتى تصبوحوا تنظرون إليه أجمعون- أو كلكم- ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، فرده الله خاسئاً^(٢).

وجود الجن معلوم من هذه الشريعة، كما أن الملائكة أيضاً معلوم وجودهم من هذه الشريعة، وقد قام البرهان العقلي القاطع على وجوده وقد صح تصورهم في الأجسام الكثيفة ورؤية بني آدم لهم في تلك الأجسام، كالشيطان الذي رآه أبو هريرة رضي الله عنه حين جعل يحفظ تمر الصدقة^(٣)، والعفريت

الذي رآه الرسول وقال فيه: (لولا دعوة أخي سليمان لربطته إلى سارية من سواري المسجد)^(٤)، وكحديث خالد بن الوليد حين سير لكسر ذي الخلصة، وكحديث سواد بن قارب مع رثيه من الجن^(٥) إلا أن رؤيتهم في الصور الكثيفة نادرة، كما أن الملائكة قد تبدو في الصور الكثيفة كحديث جبريل، وحديث الملك الذي أتى الأعمى والأقرع والأبرص^(٦)، وهذا أمر قد استفاض في الشريعة، فلا يمكن رد تصورهم في بعض الأحيان في الصور الكثيفة^(٧).

وعالم الجن، أو الشيطان، وإن يكن غير منظور لنا، فإن علينا الإيمان به، وأنه يعيش معنا على هذه الأرض، ويرانا من حيث لا نراه، كما يقول تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

«وهذا العالم غير المرئي، هو عدو لنا، متربص بنا، أشبه بجرائم الأمراض التي لا

باب إذا وكل رجلاً، رقم ٢٣١١، ٣/ ١٠١.

- (٤) سبق تخريجه.
- (٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب إسلام عمر رضي الله عنه، رقم ٣٨٦٦، ٥/ ٤٨.
- (٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٣٤٦٤، ٤/ ١٧١.
- (٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣٢/ ٥.

(١) المصدر السابق ١٤/ ٢٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، رقم ٤٦١، ١/ ٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، رقم ٥٤١، ١/ ٣٨٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة،

الرؤية الوهمية

أشار القرآن الكريم إلى هناك رؤية موهومة، يرى الرائي شيئاً، والحقيقة تختلف عما يراه.

ومن تلك النماذج التي أشار إليها القرآن الكريم:

أولاً: رؤية الجبال:

قال تعالى: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ إِنَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

وقد اختلف المفسرون في الرؤية الواردة في الآية هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور المفسرين: إن الآية حكّت حادثاً يحصل يوم ينفخ في الصور فجعلوا قوله: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ عطفًا على ﴿يَنْفُخُ فِي الصُّورِ﴾ [النمل: ٨٧].

أي: ويوم ترى الجبال تحسبها جامدة إلخ.. وجعلوا الرؤية بصرية، ومر السحاب تشبيهاً لتقلها بمر السحاب في السرعة^(٢).

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي:

ترى بالعين المجردة، وإن كان يمكن رؤيتها بأجهزة خاصة، كما يمكن أن يرى الشيطان لكثير من المؤمنين بعين البصيرة لا الإبصار، فلنحذر هذا العدو الراصد، كما نحذر الوباء، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وإنه ليس علينا أن نبحث عن كنه الشيطان، ولا عن حياته الخاصة في عالمه، ولا عن طعامه، شرابه، وتزاوجه، وتوالده، وإنما الذي علينا أن نعلمه، هو أنه عدو غير مرئي لنا، وأنه يتدسس إلى مشاعرنا، ومدركاتنا، وعواطفنا، ويحاول جاهداً أن يؤثر فيها، وأن يخرج بها عن جادة الحق والخير، إلى طريق الغواية والضلال، فيزين لنا الشر، فنراه خيراً، والضلال، فنراه هدى! والشيطان، ليس هو النفس الأمارة بالسوء، كما يرى ذلك بعض الناس، وإنما هو كائن له وجوده المستقل خارج العالم الإنساني، وله حياته الخاصة، شأنه في هذا شأن الكائنات والعوالم غير المادية التي تعيش معنا، كالجراثيم، والهواء، بل والإنسان الذي يلبس ثوب الوسواس، فإنه شيطان غير مرئي^(١).

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٧٥١/١٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤٧/٢٠.

تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝١ وَيَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝٢﴾ [الطور: ٩-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٦ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝١٧﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِرَ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذي أنقن كل شيء، أي: أنقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء^(١). القول الثاني: إن هذه الرؤية في الدنيا.

قال ابن جرير: ﴿وَنَزَى الْجِبَالُ﴾ يا محمد ﴿تَحْسَبًا﴾ قائمة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ قاله ابن عباس، قوله: ﴿وَنَزَى الْجِبَالُ تَحْسَبًا جَامِدَةً﴾ يقول: قائمة، وإنما قيل: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ﴾ لأنها تجمع ثم تسير، فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيرًا حثيثًا، قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أوثق خلقه^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٥. وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٧٤. (٢) جامع البيان ١٩/ ٥٠٥.

وقال الزمخشري: ﴿جَامِدَةً﴾ من جمد في مكانه إذا لم يبرح، تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفه ثابتة في مكان واحد، وهي تمر مرًا حثيثًا كما يمر السحاب، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد: إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها^(٣).

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهذا تمجيد لهذا النظام العجيب إذ تتحرك الأجسام العظيمة مسافات شاسعة والناس يحسبونها قارة ثابتة، وهي تتحرك بهم، ولا يشعرون^(٤).

لذلك قال تعالى: ﴿وَنَزَى الْجِبَالُ تَحْسَبًا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

فليس غريبًا الآن أن نعرف أن للجبال حركة، وأن كنا لا نراها؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها، كما لو أنك وصاحبك في مركب، والمركب تسير بكما، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته.

وقد شبه الله حركة الجبال بمر السحاب، فالسحاب لا يمر بحركة ذاتية فيه، إنما يمر بدفع الرياح، كذلك الجبال لا تمر بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها، وهذا دليل واضح على حركة الأرض^(٥).

(٣) الكشف ٣/ ٣٨٧. (٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٥٠. (٥) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٥٢٧.

طرفي النهار، ويرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء^(٤).

وهذا مثل ضربه الله لأعمال أهل الكفر به، فقال: والذين جحدوا توحيد ربهم وكذبوا بهذا القرآن، وبمن جاء به مثل أعمالهم التي عملوها (كسراب) يقول: مثل سراب، والقاع: ما انبسط من الأرض واتسع، وفيه يكون السراب.

والمعنى: حتى إذا جاء الظمآن السراب ملتئمًا ماءً، يستغيث به من عطشه ﴿لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا﴾ يقول: لم يجد السراب شيئًا، فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور، يحسبون أنها منجيتهم عند الله من عذابه، كما حسب الظمآن الذي رأى السراب، فظنه ماء يرويه من ظمئه، حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعه عند الله، لم يجد ينفعه شيئًا؛ لأنه كان عمله على كفر بالله، ووجد الله، هذا الكافر عند هلاكه بالمرصاد، فوفاه يوم القيامة حساب أعماله التي عملها في الدنيا، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه عليه منه^(٥).

والسراب: هي ظاهرة ضوئية تلاحظ في ظروف مناخية وجغرافية متعددة، وأكثرها شيوعًا ما يلاحظه المسافر في المناطق الصحراوية خلال فترة الظهيرة، من وجود

للجبال حركة مرتبطة بحركة الأرض، وهذه الحركة لا ترى؛ لأنه لا يمكن لمن على الأرض أن يشعر بحركتها؛ لأنه يتحرك معها، وما دامت الجبال أوتادًا في الأرض وهي -أي: الجبال- تمر مر السحاب، فلا بد أن الأرض كذلك تمر، وتتحرك بنفس الحركة، وحركة الجبال ليست ذاتية، إنما هي تابعة لحركة الأرض، والحق سبحانه شبه حركة الجبال بحركة السحاب، والسحاب حركته غير ذاتية، إنما هي تابعة لحركة الرياح^(١).

ثانيًا: رؤية السراب:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ مَرِيعٌ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَيَرَى الْجِبَالُ تَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]^(٢).

السراب: ما يرى في نصف النهار من اشتداد الحر؛ كالماء في المفاوز يلصق بالأرض، وهو غير الآل^(٣) الذي يرى في

(١) المصدر السابق ١٩/ ١١٦٠٠.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٥.

(٣) الآل: والسراب واحد، وقيل: الآل من الضحى إلى زوال الشمس، والسراب بعد الزوال إلى صلاة العصر.

انظر: تهذيب اللغة، الأزهرى ١٥/ ٣١٥،

لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٦، تاج

العروس، الزبيدي ٣/ ٥٢.

(٤) الكليات، الكفوي ص ٥١٤.

(٥) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٥.

رؤية النعم

لقد من الله عز وجل على بني آدم بنعم كثيرة، لا تعد ولا تحصى، يرونها في جميع تفاصيل حياتهم، لا يختلف في ذلك غنيهم عن فقيرهم، فالكل منعم عليه. ولكن نظرة الناس إلى تلك النعم تختلف، وهذا ما سنتناقشه في النقاط الآتية:

أولاً: رؤية الشاكر:

إن الشاكر يرى أن النعم من الله تعالى، ولهذا فهو يطلب من الله تعالى أن يلهمه شكر هذه النعم.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

والمعنى: أغرنني بشكر نعمتك التي أنعمت علي^(٢)، يعني: ألهمني ما أؤدي به شكر نعمتك، وما أوزعت به نفسي، أن أكفها عن كفران نعمتك، وأصله من وزعته، أي: دفعته، يعني: ادفعني أن أؤدي شكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي بالإسلام، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ يعني: تقبله ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: أكرمهم بالتوحيد^(٣).

رقعة مائة أمامه، وكلما تقدم، تقدمت تلك الرقعة المائة أمامه، وما هي في الحقيقة بماء، وهو لن يدركها أبداً، وقد ضرب الله في قرآنه المحكم مثلاً بهذه الظاهرة الطبيعية التي يراها الناس بأعينهم ويعرفون مدلولها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرِيبٍ يَبِيعُونَ بِحَسْبِهِ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ مَسْنَنًا﴾ [النور: ٣٩].

فقد شبه الله أعمال الكافرين بالسراب، وما هو بماء حقيقي، ولكنه وهم وخداع نظر، فهي أعمال يحسبها الكافرون تنفعهم بدون إيمان، حتى إذا جاءوا يوم القيامة وجدوا أعمالهم هباءً منثوراً^(١).

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١١٤.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٢٨٨.

(١) القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص ٤٧.

يحدث بها، ويذكرها ويعمل بمقتضاها^(٢).
قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

أي: انشر ما أنعم الله عليك بالشكر
والثناء، والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها
شكر^(٣).

والتحدث بنعمة والإخبار بها، وقول
العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا شكر.. عن
النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال
النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر: (من
لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم
يشكر الناس، لم يشكر الله، التحدث بنعمة
الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة،
والفرقة عذاب)^(٤).

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن
جده رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال: (إن الله تعالى جميل، يحب
الجمال، ويحب أن يرى أثر النعمة على
عبده)^(٥).

(٢) جامع البيان، الطبري ٤٨٩/٢٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠٢/٢٠.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٨٤٤٩، ٣٩٠/٣٠.

وحسنه الألباني في الجامع الصغير، رقم
٥٧٨/١، ٣٠١٤.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٨١٠٧،
٤٦٨/١٣، والترمذي في سننه، أبواب البر
والصلة، باب ما جاء في التشيع بما لم يعطه،
رقم ٢٨١٩، ١٢٣/٥.

وصححه الألباني في صحيح الجامع،

كما أن الشاكر يرى أن الله سخر له ما
في السموات والأرض وتم تلك النعم عليه
الظاهرة والباطنة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي
أَلَلهِ يَغْيِرْ عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٌ مُّنِيرٌ﴾
[لقمان: ٢٠].

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم
في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في
السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم
ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار
وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا،
وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار
وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه
الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال
الكتب وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا
كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل
في الله، أي: في توحيده وإرساله الرسل
ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من
حجة صحيحة، ولا كتاب ماثور صحيح،
ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ
فِي اللَّهِ يَغْيِرْ عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٌ مُّنِيرٌ﴾
[لقمان: ٢٠]. أي: مبين مضيء^(١).

وكذلك يرى الشاكر أن من شكر النعم أن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣١٠/٦.

وانظر: مدارك التنزيل، النسفي ٧١٧/٢.

يعني: يشكر بما أنعم الله تعالى عليه، ويحدث به، فيظهر على نفسه أثر النعمة^(١). وفي حديث جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أعطي عطاء، فوجد فليجز به، ومن لم يجد فليثن، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور). ومعنى قوله: (ومن كتم فقد كفر) يقول: قد كفر تلك النعمة^(٢).

فذكر أقسام الخلق الثلاثة، شاکر النعمة المثنى بها، والجاحد لها، والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها، فهو متحل بما لم يفعله^(٣). والشكر ثلاثة أشياء:

الأول: معرفة النعمة بمعنى إحضارها في الخاطر بحيث يتميز عندك أنها نعمة، فرب جاهل يحسن إليه وينعم عليه، وهو لا يدري، فلا جرم أنه لا يصح منه الشكر.

والثاني: قبول النعمة بتلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة، فإن ذلك شاهد بقبولها

حقيقة.

والثالث: الثناء بها بأن تصف المنعم بالجدود والكرم ونحوه مما يدل على حسن تلقيك لها واعترافك بنزول مقامك في الرتبة عن مقامه، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى^(٤).

وشكر الله تعالى مبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحب له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره، هذه الخمسة هي أساس الشكر، وبناءؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر^(٥).

والشاكر في الحقيقة: من يرى عجزه عن شكره، ويرى شكره من الله عز وجل، لتحققه أنه هو الذي خلقه، وهو الذي وفقه لشكره، وهو الذي رزقه الشكر، وهو الذي اجتباه حتى كان بالكلية له سبحانه^(٦).

والخلاصة أن: رؤية الشاكر للنعم هو القيام بالشكر اعتقاداً وقولاً وفعلًا، كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وبهذا يتبين أن رؤية الشاكر للنعم تتمثل في الاعتراف بها والإقرار بوجوب الشكر، اعتقاداً بأن النعم من الله وحده لا شريك له،

(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤٠/١٤٥.

(٥) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣٣٧/٣.

(٦) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣٢٧/٢.

رقم ١٧٤٢، ١/٣٥٩.

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/٥٩٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٤٥٩٣، ١٤٢/٤١، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، رقم ٣٧٩/٤، ٢٠٣٤.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٠٤٦/٢، ٦٠٥٦.

(٣) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٥٧٣.

الله، فكأنه أراد بعلمه في التصرف وأنواع المكاسب، وقال آخرون: معناه: إنما أوتيته على خير علمه الله عندي، فكنت أهلاً لما أعطيته لفضل علمي، وقال الكلبي: على علم عندي بصنعة الذهب^(٢).

وقال ابن زيد: أي: إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني، أي: أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل في، وقيل: أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب^(٣).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۖ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۖ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

«يقول تعالى ذكره: فأما الإنسان إذا ما امتحنه ربه بالنعم والغنى فأكرمه بالمال، وأفضل عليه، ونعمه بما أوسع عليه من فضله فيقول: ربي أكرمن، فيفرح بذلك ويسر به ويقول: ربي أكرمني بهذه الكرامة.

وأما إذا ما امتحنه ربه بالفقر فقدّر عليه رزقه يقول: فضيق عليه رزقه وقتره، فلم يكثر ماله، ولم يوسع عليه فيقول: ربي أهانن، يقول: فيقول ذلك الإنسان: ربي أهانني، يقول: أذلني بالفقر، ولم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه، ورزقه

(٢) انظر: الوسيط، الواحدي ٤٠٨/٣.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣١٥/١٣.

وقولاً بالتحدث بالنعم وإظهارها، وعملاً ببذلها لمن يحتاجها؛ لما رواه ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله عبداً اختصهم بالنعم لمنافع العباد، يقرهم فيها ما بذلوا، فإذا منعوا نزاعها منهم، فحولها إلى غيرهم)^(١).

ثانياً: رؤية الجاحد:

إن الله تعالى إذا أنعم على الجاحد فإنه يرى أن هذه النعم هي بسبب فضله وعلمه ومكانته بين الناس، كما قال تعالى عن قارون: ﴿إِنْ قَرُونٌ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَيَعْنِي عَلَيْهِمْ وَيَأْتِيَنَّهُ مِنَ الْكُذُوبِ مَا إِنْ مَفَاتِحَهُ لَسَنُوهُ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ﴾ وَأَتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبِغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۗ﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ۖ﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

قال عطاء: فكفر قارون لما رأى أن المال حصل له بعلمه، ولم يعتبره من عطاء

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٥١٦٢، ٢٢٨/٥، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٧٢٥٦، ١١٧/١٠. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٣٢٢/١، ٢١٦٤.

من العافية في جسمه»^(١).

والمعنى: إذا ما اختبره ربه وأوسع عليه فيقول: ربي أكرمن، وإذا جعل رزقه مقدراً، فيقول: ربي أهانن، أي: ليس الأمر كما يظن الإنسان، وهذا يعني به الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوآن بكثرة الحظ في الدنيا، وصفة المؤمن أن الإكرام عنده توفيق الله إياه، أي: ما يؤديه إلى حظ الآخرة^(٢).

وبهذا يتبين أن الجاحد لا يرى أن النعمة من الله تعالى، بل وينسبها لغير الله تعالى، وهو بهذا يقع في الشرك وكفران النعم، ويدل على ذلك ما رواه زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، قال: (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)^(٣).

قال النووي: «اختلف العلماء في كفر من قال: مطرنا بنوء كذا، على قولين: أحدهما هو: كفر بالله سبحانه وتعالى، سالب لأصل الإيمان، مخرج من ملة الإسلام، قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، ومن اعتقد هذا، فلا شك في كفره، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم، وهو ظاهر الحديث، قالوا: وعلى هذا لو قال: مطرنا بنوء كذا، معتقداً أنه من الله تعالى وبرحمته، وأن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً بالعادة، فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا، فهذا لا يكفر، واختلفوا في كراهته، والأظهر كراهته، لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره، فساء الظن بصاحبها؛ ولأنها شعار الجاهلية، ومن سلك مسلكهم، والقول الثاني: في أصل تأويل الحديث أن المراد: كفر نعمة الله تعالى؛ لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب»^(٤).

والجاحد هو الذي لا يعرف نعمة الله تعالى ولا يقوم بشكرها، وهذا بفعل الشيطان به، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيهِمْ مِنَ بَيْنِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤١٢/٢٤.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣٢٢/٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْكُمْ أَنْتُمْ

تَكْفُرُونَ﴾، رقم ١٠٣٨، ٣٣/٢، ومسلم في

صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من

قال: مطرنا بالنوء، رقم ٧١، ٨٣/١.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٦٠/٢.

رؤية الأدلة العلمية والجنائية

سيكون هذا المبحث في بيان رؤية الأدلة العلمية، والجنائية في القرآن الكريم، وذلك في النقاط الآتية:

أولاً: رؤية الأدلة العلمية:

تتمثل رؤية الأدلة العلمية في المعجزات التي أقامها الأنبياء عليهم السلام على صدق نبوتهم، وكذلك في الأدلة العلمية للمعجزة الخالدة (القرآن الكريم) في العصر الحاضر، وسيتم بيان ذلك في الفقرات الآتية:

١. رؤية معجزات النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد رأى الصحابة الكرام رضي الله عنه المعجزات التي أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق نبوته، وهي كثيرة، ومنها: رؤية انشقاق القمر المذكورة في القرآن.

قال تعالى: ﴿أَفَتَرَى السَّاعَةَ وَاتَّقَى الْقَمَرَ ۖ إِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ﴾ [القمر: ١-٢].

«قال مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار فرقتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: (اشهد يا أبا بكر)، فقال المشركون: سحر القمر حتى

أَيَدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧].

والمعنى: ولا تجد أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتك التي أنعمت عليهم، وشكرهم إياه، طاعتهم له بالإقرار بتوحيده، واتباع أمره ونهيه^(١).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٤٢.

انشق^(١).

لقد ذكر القرآن الكريم رؤية فرعون وقومه لمعجزات سيدنا موسى عليه السلام في كثير من الآيات.

منها قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِتَايَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ﴾ (١٠٥) ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۚ﴾ (١٠٦) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ۚ﴾ (١٠٧) [الأعراف: ١٠٥-١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَتِ بِهِ إِذَا كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ﴾ (٣١) ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۚ﴾ (٣٢) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ۚ﴾ (٣٣) [الشعراء: ٣١-٣٣].

والمعنى: أنه أخرج يده من جيبه أو من تحت جناحه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني: من غير برص، وقيل: إن موسى عليه عليه السلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه، وقيل: أخرج يده من تحت إبطه، فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم اللون، ثم ردها إلى جيبه فأخرجها، فإذا هي كما كانت، ولما كان البياض المفرط عيباً في الجسد، وهو البرص قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اشهدوا)^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَوْنَ آيَةً﴾ أي: دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يُعرضوا﴾ أي: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجب سحر، ومعنى مستمر: ذاهب، أي: باطل مضمحل لا دوام له، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم^(٣).

٢. رؤية معجزات موسى عليه السلام.

- (١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٠. وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٧٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٨٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٧.
- (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾، رقم ١٤٢٦، ٤٨٦٤، ٦/ ١٤٢.
- (٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٠. وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٨٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٧.

حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحبها، وفي الأرض من جبالها، وتصدها بنباتها، وأقوات أهلها وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبراً، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يغنيكم عما سواه من الآيات.

﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وما تغني الحجج والعبر والرسل المُنذرة عباد الله عقابه، عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى لهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به؟^(٣) وقد أخبر تعالى بأنه هو الذي يري عباده الأدلة العلمية.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

والمعنى: هو الذي يريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته، وينزل لكم من أرزاقكم من السماء بإدراك الغيث الذي يخرج به أقواتكم من الأرض، وغذاء أنعامكم عليكم، وما يتذكر حجج

(٣) جامع البيان ٢١٤/١٥.

يعني: من غير برص، والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة يتعجب منه^(١).

ومعنى: ﴿النَّظِيرِينَ﴾ أن بياضها مما يقصده الناظرون لأعجوبته، وكان لون جلد موسى عليه السلام السمرة، والتعريف في ﴿النَّظِيرِينَ﴾ للاستغراق العرفي، أي: لجميع الناظرين في ذلك المجلس، وهذا يفيد أن بياضها كان واضحاً بيناً مخالفاً لون جلده بصورة بعيدة عن لون البرص^(٢).

٣. رؤية أدلة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

أمر الله تعالى بالنظر في السموات والأرض لرؤية أدلة الإعجاز العلمية.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

والمعنى كما قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائلين الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله، وخلع الأنناد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السموات من الآيات الدالة على

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/٢٣٣.

وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/٢٠٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/٥١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/١٢٤.

يَكْفُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾
[فصلت: ٥٣].

﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ يعني:
أقطار الأرض والسماء من الشمس والقمر
والنجوم والنبات والأشجار والأنهار
والبحار والأمطار، ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من
لطيف الصنعة وبديع الحكمة، وسبيل
الغائط والبول، حتى إن الرجل ليأكل
ويشرب من مكان واحد، ويخرج ما يأكل
ويشرب من مكانين.

﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يعني: إن ما
نريهم ونفعل من ذلك هو الحق، وقيل: إنه
يعني: الإسلام، وقيل: محمد صلى الله عليه
وسلم، وقيل: القرآن^(٤).

ومثل الآية قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ
عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾
[الأنبياء: ٣٧].

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾: معناه أن
بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع،
كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾
[الإسراء: ١١]^(٥).

﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾
والمعنى: يا أيها المستعجلون ربهم بالآيات
القائلون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم:
بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون،

الله التي جعلها أدلة على وحدانيته، فيعتبر
بها ويتعظ ويعلم حقيقة ما تدل عليه، إلا
من ينيب، يقول: إلا من يرجع إلى توحيده،
ويقبل على طاعته^(١).

وآيات الله: تعم آيات قدرته، وآيات
قرآنه، والمعجزات الظاهرة على أيدي
رسله^(٢).

قال ابن كثير: «هو الذي يريكم آياته،
أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في
خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة
الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها
﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر
الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو
مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه
وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد
فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء،
﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾، أي: يعتبر ويتفكر في
هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها
﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى
الله تبارك وتعالى»^(٣).

ورؤية أدلة الإعجاز العلمي ليست
محددة بوقت، بل تشمل جميع الأزمان
قال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ
وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ

(١) جامع البيان، الطبري ٣٦٢/٢١.

وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ١٠/٥.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥٥٠/٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٢١/٧.

(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣٠٠/٨.

(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢٨٨/٣.

إياه من الآيات^(٣)، والأدلة على صدقه في عفته ونزاهته^(٤).

ويدخل في رؤية الأدلة العلمية ما يهبه الله تعالى للعلماء من ملكة فقهية لرؤية الأدلة العلمية في الكتاب والسنة على الأحكام، ومن ثم بناء الأحكام الفقهية عليها.

ثانيًا: رؤية الأدلة الجنائية:

ورد في القرآن ما يختص برؤية الأدلة الجنائية، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصُ بْنُ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

استدل العلماء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالتقسامة وغيرها، كما استدل يعقوب عليه عليه السلام على كذبهم بصحة القميص، فيجب على الناظر أن يلحظ الآيات، والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة، ولا خلاف بين العلماء في الحكم بها^(٥).

فيحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات، فيما لا تحضره البيّنات، كاللقطة والسرقة والوديعة ومعاهد الحيّطان

﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾، كما أريتها من قبلكم من الأمم التي أهلكناها بتكذيبها الرسل، إذا أتتها الآيات، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوا﴾، يقول: فلا تستعجلوا ربكم، فإننا سنأتيكم بها ونريكموها^(١).

ونتيجة رؤية الأدلة العلمية هي الإيمان والتصديق بالنسبة للمؤمنين، أما الكافرين فقد أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصفّات: ١٤].

أي: إذا رأوا حجة من حجج الله عليهم، ودلالة على نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يسخرون ويستهزئون بها^(٢).

٤. رؤية الأدلة العلمية على ثبوت الوقائع.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُذُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

والمعنى: ظهر للعزير وأهل مشورته أدلة وعلامات براءة يوسف عليه السلام من قد القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحز الأيدي، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف عليه السلام. أن يسجنوه كتمانًا للقصة ألا تشيع في العامة، وللحيلولة بينه وبينها، فالقميص من الآيات، وشهادة الشاهد من الآيات، وقطع الأيدي من الآيات، وإعظام النساء

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨٦/٩.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٣١/٤.

(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤١/١١.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٤٤/١٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢١/٢٤.

والسقوف وشبهها^(١).

فمن ذلك قول المالكية وغيرهم: إن القرينة الجازمة ربما قامت مقام البينة، مستدلين على ذلك بجعل شاهد يوسف شق قميصه من دبر قرينة على صدقه، وكذب المرأة^(٢).

وسمي قوله شهادة؛ لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيده أو دحضه، وهذا من القضاء بالقرينة البينة؛ لأنها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه لكان ذلك في حال استقباله له إياها، فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قبل، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض، ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال الشاهد أن تمزيقاً وقع وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص، والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها، فأراد أن يقيم دليلاً على صدقها، فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام^(٣).

ويفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين

وكذب الآخر؛ لأن ذكر الله لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف عليه السلام يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب؛ لأن كون القميص مشقوقاً من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها، وهي تنوشه من خلفه، ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن محل العمل بالقرينة ما لم تعارضها قرينة أقوى منها، فإن عارضتها قرينة أقوى منها أبطلتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وهذه الآيات المذكورة أصل في الحكم بالقرائن^(٤).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قال بعض العلماء: لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم؛ قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التخريق، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف، وهو لابس القميص، ويسلم القميص من التخريق، ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص لم يجد فيه

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١٧٠/٦.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنيطي ٣٨٠/١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥٧/١٢.

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنيطي ٢١٥/٢.

الرؤية والاعتبار

إن الرؤية والاعتبار في القرآن الكريم يكون في التفكير والاعتبار في الآيات الكونية، وفي الاعتبار والعظة بهلاك الأمم السابقة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: الآيات الكونية:

الآيات الكونية هي: الآيات المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كونه الله تعالى فكان، وذلك السموات والأرض والجبال والسهول والأنهار والشمس والقمر والنبات والحيوان والجماد، وخلق الإنسان، وآيات الله عز وجل في الأفاق، وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات^(٢).

جاء الأمر الصريح في القرآن على الحث على التفكير في الكون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائلينك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها

خرقاً، ولا أثراً، استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: تزعمون أن الذئب أكله، ولو أكله لشق قميصه^(١).

وبهذا يكون النظر في الأدلة الجنائية وأدوات الجريمة مما يساعد في كشف الجريمة وملاستها ومعرفة الجاني.

(١) انظر: الباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤١/١١.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/١٤١.

ذكر قوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم يذكر التفصيل، فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية، حتى إن العاقل يتنبه لأقسامها، وحيث يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية، ثم إنه تعالى لما أمر بهذا التفكير والتأمل، بين بعد ذلك أن هذا التفكير والتدبر في هذه الآيات لا ينفع في حق من حكم الله تعالى عليه في الأزل بالشقاء والضلال^(٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

أرشد الله تعالى في الآية إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون^(٥).

والمعنى: سيروا في الأرض وشاهدوا السموات وما فيها من الكواكب النيرة، ثوابتها وسياراتها، والأرض وما فيها من

وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحبها وفي الأرض من جبالها، وتصدها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبراً، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يغنيكم عما سواه من الآيات^(١).

وهذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع، وغير ذلك من آيات السماوات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك^(٢).

أي: انظروا بالتفكير والاعتبار ماذا في السماوات والأرض من الآيات والعبر التي تدل على وحدانيته ونفاذ قدرته كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، وكل هذا يقتضي خالقاً مدبراً سبحانه^(٣).

قال الإمام الرازي: «ولو أن الإنسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخلق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد، ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد، فلهذا السبب

(١) جامع البيان ٢١٤/١٥.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١٤٥/٣.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣٥٣/٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/٣٠٦.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٤٤/٦.

إعادتها بعد عدمها^(٢).

قال محمد إسماعيل إبراهيم: «وها هو القرآن يدعونا إلى التفكير في بدء الخلق منذ أن تصلبت قشرة الأرض الخارجية، وتكونت عليها القارات والمحيطات، لذلك اجتهد علماء الجيولوجيا أن يقرأوا تاريخ الأرض من طبقات الصخور الرسوبية التي تراكت عليها، وفي طبقاتها الكثير من بقايا الكائنات الحية التي عاشت عليها، سواء كانت لحيوان أو نبات، وهذه البقايا المتحجرة هي ما نسميه اليوم بالحفريات، وهي في واقعها سجل حافل بتاريخ الخليقة منذ بدايتها، وقد استطاع العلم بوسائله المتقدمة أن يقرأ كثيراً من صفحات هذا السجل، ويعرف حقائق كثيرة عن نشأة الأرض وتطوراتها خلال الأزمنة الجيولوجية»^(٣).

وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَشَاءَ وَيَجْعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾ [الإسراء: ٩٩].

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أولم ينظر هؤلاء القائلون من المشركين: ﴿أَوَلَا كُنَّا عِزّاً وَرَفَقَةً أَوَلَا لِمَبْعُوثٍ خَلْقاً جَدِيداً﴾ [الإسراء: ٩٨] بعيون قلوبهم، فيعلمون أن الله الذي خلق

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٠.
(٣) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص ٦٨.

جبال ومهاد، وبراري وقفار، وأشجار وثمار، وأنهار وبحار، فكل ذلك شاهد على حدوثها في أنفسها، وعلى جود صانعها الذي يقول للشيء: كن، فيكون^(١).

وإنما أمر بالسير في الأرض؛ لأن السير يبدني إلى الرائي مشاهدات جمّة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيراً من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولاناً لم يكن يخطر له ببال، حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه؛ لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائباً عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل، فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي؛ لأن السائر ليس له من قرار في طريقه، فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن، وأنه قادر على إيجاد أمثالها، فهو بالأحرى قادر على

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٠/ ١٢٧.

السموات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقدرته، قادر بتلك القدرة على أن يخلق مثلهم أشكالهم، وأمثالهم من الخلق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأن من قدر على ذلك فلا يمتنع عليه إعادتهم خلقًا جديدًا، بعد أن يصيروا عظامًا ورفاتًا^(١).

وقد أمر الله تعالى بالنظر إلى آية المطر للاستدلال على قدرته سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْجَىٰ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

والمعنى: انظروا نظر استبصار واستدلال، أي: استدلووا بذلك على أن من قدر على ذلك قادر على إحياء الموتى^(٢). وقد نعى الله تعالى على تاركي التفكير في الآيات الكونية، ووصفهم بأنهم لا يفكرون في ما حولهم، وشنع عليهم تركهم التفكير^(٣).

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [٨] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٦٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤٥/ ١٤.

(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٢٥٣.

مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لَإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ اللَّهُ يَدْرَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ [الروم: ٨-١١].

والمعنى: «أولم يشتوا التفكير في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة، فيتفكروا بها في مصنوعات الله، حتى يعلموا أنها ما خلقت عبثًا، والتفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده في قلبك، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾، التي هي أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهرًا وباطنًا، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازي فيه، على الإحسان إحسانًا، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا، عند ذلك أن سائر الخلائق مثلها، وأنه لا بد لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت، فيعلموا أن ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى أي: ما خلقها باطلاً وعبثًا من غير حكمة ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة البالغة، وتنتهي إلى أجل مسمى وهو قيام الساعة، ووقت الحساب

شيء، فدبرها»^(٣).

[انظر: الآيات الكونية، مجالات استدلال القرآن بالآيات الكونية]

ثانيًا: هلاك الأمم السابقة:

أمر الله تعالى بالسير في الأرض للاعتبار بهلاك الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

والمعنى: سيروا في الأرض لتعرفوا أحوال أولئك الأمم، وتفكروا في أنهم كيف أهلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا، فتعرفوا صحة ما توعظون به، وفي السير في الأرض، والسفر في البلاد، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها تكملة للاعتبار، وتقوية للاستبصار^(٤).

كما حض الله سبحانه على رؤية ما حل بالأمم السابقة وأخذ العبرة من ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].^(٥)

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره

(٣) جامع البيان ٢٨٥/١٦.

وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١٣١/٣.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٣٢١/٤.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٦٨/٢.

بالثواب والعقاب، فيخرب هذا العالم، ويقوم عالم آخر، لا انتهاء لوجوده»^(١).

وقد وصف الله تعالى تاركي التفكير والاعتبار بأنهم مكذبون وكافرون بهذه الآيات ووبخهم وتهكم عليهم^(٢)، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِيسًا أَنْ تُبَيِّدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ^(٤) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ^(٥) [الأنبياء: ٣٠-٣٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٦) [يوسف: ١٠٥].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول جل وعز: وكم من آية في السموات والأرض لله، وعبرة وحجة، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، يقول: يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣٢٦/٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٣١/٢١.

لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون نبوتك، كثرة من أهلك من قبلهم من القرون، وهم الأمم الذين وطأت لهم البلاد والأرض توطئة لم أوطئها لهم، وأعطيتهم فيها ما لم أعطيهم؟^(١)

والقرن الأمة من الناس، والجمع القرون^(٢)، وقيل: القرن مدة أغلب أعمار الناس وهي سبعون سنة، وقيل: ثمانون، ﴿فَأَهْلَكْتَهُمْ يَدْثُورِهِمْ﴾ أي: لم يغن ذلك عنهم شيئاً، وأحدثنا من بعدهم قرناً آخرين بدلاً منهم، والمعنى: أنه سبحانه وتعالى كما قدر على أن يهلك من قبلكم كعاد وثمرود، وينشئ مكانهم أقواماً يعمر بهم بلاده، يقدر أن يفعل ذلك بكم^(٣).

وقد بين الله تعالى أن قوة وشدة الأمم السابقة لم تمنع عنهم الهلاك، ولم تكن قوتهم وعمارتهم للأرض وقاية لهم من ذلك.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

(١) جامع البيان ١١/ ٢٦٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٩١/٦.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البضاوي ٢/ ١٥٤.

﴿١﴾ [الروم: ٩].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارُوا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارُوا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

والمعنى: أولم يسر هؤلاء المكذبون بالله، الغافلون عن الآخرة في البلاد التي يسلكونها للتجارة ونحوها، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة، كيف كان عاقبة أمرها في تكذيبها رسلها، فقد كانوا أشد منهم قوة.

﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾ أي: استخرجوا الأرض، وحرثوها وعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسلهم، فلم يقدروا على الامتناع، مع شدة قواهم مما نزل بهم من عقاب الله، ولا نفعهم عمارتهم ما عمروا من الأرض، فأحل الله بهم بأسه، وعلل ذلك الهلاك بقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ﴾ بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله، وجحودهم آياته، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعصيتهم

وبهم^(١). وفي الآيات تقرير لسيرهم في البلاد، ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ثم وصف حالهم فقال: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾ وحرثوها ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ أي: المدمرون ﴿أَكْثَرُ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: من عمارة أهل مكة وغيرهم^(٢).

ومع السير في الأرض للاعتبار بهلاك الأمم السابقة بين تعالى أن الآخرة خير للمتقين. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

والمعنى: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الكافرين الذين من قبلهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم الله ﴿وَالْكَافِرِينَ أَهْلُهَا﴾ أي: أمثال تلك العاقبة، فأهلك الله عز وجل بالسيف من أهلك ممن صد عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٥).

ومن الاعتبار في هلاك الأمم السابقة أنهم لا يرجعون إلى الدنيا.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلُهَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١-٣٢].

قال السعدي: «يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله

والمعنى: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من المكذبين بالرسول والآيات فيحذروا تكذيبك، أو من المشغوفين بالدنيا المتهاككين عليها، فيقلعوا عن حبها، ولدار الآخرة أي: الحياة الآخرة، ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشوك والمعاصي، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير^(٣).

وقد بين الله تعالى أن للكافرين مثل ذلك

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧٨/٢٠.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٦٩٢/٢.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١٧٩/٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦٢/٢٢.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٨/٥.

رؤية ثواب الأعمال

في الآخرة يعرف العباد مصيرهم، ويرون ثواب أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وسيكون حديثنا في هذا المبحث في النقاط الآتية:

أولاً: رؤية ثواب الأعمال الصالحة:

بين الله تعالى رؤية ثواب الأعمال الصالحة في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦].

يقول: يومئذ يصدر الناس أشتاتاً متفرقين، عن اليمين وعن الشمال، ليروا أعمالهم، فيرى المحسن في الدنيا المطيع لله عمله، وما أعد الله له يومئذ من الكرامة على طاعته إياه كانت في الدنيا، ويرى المسيء العاصي لله عمله وجزاء عمله، وما أعد الله له من الهوان والخزي في جهنم على معصيته إياه كانت في الدنيا، وكفره به^(٣).

وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

يقول: فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير، يرى ثوابه هنالك^(٤).

قال ابن عباس رضي الله عنه: «من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، ولا

الجميع خلقاً جديداً، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة»^(١).

وبعد أن ذكر أنه أهلكهم وبين طريق ذلك، أعقب هذا بأن لهم حساباً وعقاباً فقال: ﴿وَلَنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: وإن جميع الأمم ماضيها وحاضرها وآتيها ستحضر يوم القيامة بين يدي الله، فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة له، والخلاصة: إن الناس يجمعون للحساب والجزاء، ويوفى كل عامل جزاء عمله من خير أو شر^(٢).

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٤٩ / ٢٤.

(٤) المصدر السابق ٥٤٩ / ٢٤.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٦٩٥.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٥ / ٢٣.

الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن (٣).

وأسند الإحضار إلى النفوس لأنها الفاعلة للأعمال التي يظهر جزاؤها يومئذ، فهذا الإسناد من إسناد فعل الشيء إلى سبب فعله، فحصل هنا مجازان: مجاز لغوي ومجاز عقلي، وحقيقتهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ وجعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها حاصلة عند حصول مجموع الشروط التي ذكرت في الجمل الثنتي عشرة، لأن بعض الأحوال التي تضمنتها الشروط مقارن لحصول علم النفوس بأعمالها، وهي الأحوال الستة المذكورة أخيراً، وبعض الأحوال حاصل من قبل بقليل، وهي الأحوال الستة المذكورة أولاً (٤).

ثانياً: رؤية جزاء الأعمال السيئة:

إن ثواب الأعمال السيئة هي الجحيم، وقد أخبر سبحانه أنها تبرز لمن يرى.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٢٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٥١.

يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات، ويتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف له في الآخرة (١).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

والمعنى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا من خير ﴿مُحْضَرًا﴾ يعني: تجد ثوابه حاضراً، ولا ينقص من ثواب عمله شيء، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ يعني: من شر في الدنيا ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ يعني: تتمنى النفس أن تكون بينها وبين ذلك العمل أجلاً بعيداً، كما بين المشرق والمغرب، ولم تعمل ذلك العمل قط، ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: عقوبته في عمل السوء، ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال ابن عباس: يعني: بالمؤمنين خاصة، وهو رحيم بهم (٢).

والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤٥٠/ ٢٠.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢٠٦/ ١.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لَمَنْ يَرَىٰ﴾ (٣٦)

[النازعات: ٣٦].

قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء، فينظر إليها الخلق^(١)، والحكمة في إظهار الجحيم هو مشاهدة الكفار مكان عقوبتهم، وليعلم المؤمنون من أي عذاب نجوا^(٢).

ومثلها قوله تعالى: ﴿كَلَّا تَوْفَلُمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۖ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧].

هذا تفسير الوعيد المتقدم في قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣-٤].

توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية أهل النار إذا زفرت زفرة واحدة خر كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبته من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال^(٣).

أي: إن دار العذاب التي أعدت لمن يلهو عن الحق لا ريب فيها ولترونها بأعينكم، فاجعلوا صورة عذابها حاضرة في أذهانكم، لتنبهكم إلى ما هو خير لكم مما تلهون به.

والمراد برؤية الجحيم: ذوق عذابها، وهذا استعمال شائع في الكتاب الكريم، ثم كرر ذلك للتأكيد فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] أي: لترونها رؤية هي اليقين نفسه، إلى أي دين أو إلى أي

(١) انظر: الوسيط، الواحدي ٤/ ٤٢١.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٥٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥٢.

شخص كانت نسبتكم، فلتتقوا الله ربكم، ولتتنهوا عما يقذف بكم فيها، ولتنتظروا إلى ما أنتم فيه من نعمة، ولترعوا حق الله فيها، فاستعملوها فيما أمر أن تستعمل فيه، ولا تجترحوا السيئات وتقتربوا المنكرات، إنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو الله عنهم، ويزحزحهم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامي وتلقيبكم بألقابه، مع مخالفتكم أحكام القرآن، وعملكم عمل أعداء الإسلام^(٤).

قال الرازي: «في تكرار الرؤية وجوه: أحدها: أنه لتأكيد الوعيد أيضًا، لعل القوم كانوا يكرهون سماع الوعيد، فكرر لذلك، ونون التأكيد تقتضي كون تلك الرؤية اضطرارية، يعني: لو خليتكم ورأيكم ما رأيتموها، لكنكم تحملون على رؤيتها شتم أم أبيتم، وثانيها: أن أولهما الرؤية من البعيد: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وقوله: ﴿وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لَمَنْ يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦].

والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار، وثالثها: أن الرؤية الأولى عند الورود، والثانية عند الدخول فيها، قيل: هذا التفسير ليس بحسن؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ والسؤال يكون قبل الدخول، ورابعها: الرؤية الأولى

(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٣٢.

قدم من خير وشر مثبتاً عليه في صحيفته، فيرجو ثواب الله على صالح عمله، ويخاف العقاب على سوء عمله، وأما الكافر فإنه يقول: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِثُنِي كُنتُ تَرَابًا﴾.

قال الحسن: إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، ففضى بين الثقلين الجن والإنس، وأنزلهم منازلهم، قال لسائر الخلق: كونوا تراباً، فكانوا تراباً، فحيث يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً^(٢).

ورؤية ثواب الأعمال الصالحة، وثواب الأعمال السيئة يكون بعد رؤية ما كسبه الإنسان في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٣٩) ﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَىٰ﴾ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْآخِرَ (٤١) [النجم: ٣٩-٤١].

كما قال تعالى في بدو سيئات ما كسب الكافرون: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤٨) [الزمر: ٤٨].

أي: أنه ظهر للكافرين ما كانوا يعملون من سيئات، وانكشف لهم وجهها القبيح الذي ينادى عليهم بالويل والشبور ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: حل وأحاط بهم، هذا اليوم الذي كانوا يستهزئون به، وينكرون أن يكون واقعاً أبداً^(٣).

(٢) الوسيط، الواحدي ٤/٤١٧.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/٢٥٥.

للوعد، والثانية المشاهدة، وخامسها: أن يكون المراد ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ غير مرة، فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها؛ لأنهم مخلدون في الجحيم، فكأنه قيل لهم: على جهة الوعيد، لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة، فتزول عنكم الشكوك، فإن قيل: ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين؟ قلنا: لأنهم في المرة الأولى رأوا لهباً لا غير، وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التفريع على ترك النظر؛ لأنهم كانوا يقتصرون على الظن، ولا يطلبون الزيادة^(١).

ورؤية ثواب الأعمال في الآخرة قد سبقه الإنذار بذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِثُنِي كُنتُ تَرَابًا﴾ (٤٠) [النبأ: ٤٠].

فقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: العذاب في الآخرة، وكل ما هو آت قريب.

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعني:

أن كل أحد يرى عمله في ذلك اليوم، ما

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/٢٧٣.

رؤية النعيم والعذاب

يترتب على السعي في الحياة الدنيا رؤية العمل وثوابه، كما يترتب على ذلك رؤية النعيم، ورؤية العذاب، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: رؤية النعيم:

ذكر الله تعالى رؤية النعيم في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ۖ وَإِذَا رَأَيْتُ ثُمَّ رَأَيْتُ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۖ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُودٌ خُضِرَ لَخْضَرٍ وَاسْتَبْرَقَ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَرْتُهُمْ رُبُمَ شَرَابًا طَهُورًا ۖ﴾ [الإنسان: ١٩-٢١].

والنعيم: سائر ما يتنعم به^(٢)، والملك الكبير هو كما قال ابن كثير: «وإذا رأيت يا محمد الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا، أي: مملكة لله هناك عظيمة وسلطانًا باهرًا، وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا إليها: (إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها)^(٣)».

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٧١، ٨/١١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم ١٨٦، ١/١٧٣، عن عبد الله بن مسعود.

ورؤية ثواب الأعمال يقوم على ميزان العدل الإلهي، وقد أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ۖ﴾ [يونس: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةٌ يَصْغُفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾ [النساء: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ۖ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. والآيات بمثل ذلك كثيرة^(١).

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/٢٨٩.

ثانيًا: رؤية العذاب:

أخبر تعالى أن الظالمين يرون العذاب يوم القيامة في آيات من كتابه الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (٣٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٦﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٦].

تقدير الكلام في الآية: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه (٤). والمعنى: ولو يشاهد الذين ظلموا أنفسهم بتدنيسها بالشرك، وظلم الناس وغشهم، بحملهم على أن يحذو حذوهم، ويتخذوا الأنداد مثلهم، حين يرون العذاب في الآخرة، فتقطع بهم الأسباب، ولا تغني عنهم الأنداد والأرباب، أن القوة لله وحده، بها يتصرف في كل موجود، لعلموا أن هذه القوة التي تدبر عالم الآخرة هي عين القوة التي تدبر عالم الدنيا، وأنهم كانوا ضالين حين لجئوا إلى سواها، وأشركوا معها غيرها، وكان ذلك منشأ عقابهم وعذابهم (٥). كما أخبر تعالى أن الظالمين يسرون الندامة حين يرون العذاب، قال تعالى:

فإذا كان هذا عطاءه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى؟ (١).

وقال المراغي: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نِعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ أي: وإذا نظرت في الجنة رأيت نعيمًا عظيمًا ومَلَكًا كبيرًا لا يحيط به الوصف.

وقد اختلفوا في المراد من هذا الملك الكبير، فقيل: إن أدناهم منزلة من ينظر ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه، كما يرى أدناه، وقيل: هو استئذان الملائكة عليهم، فلا يدخلون إلا بإذنهم، وقيل: هو الملك الدائم الذي لا زوال له، ولم يجر في الأخبار الصحيحة ما يفسر هذا الملك الكبير، فأولى بنا أن نؤمن به ونترك تفصيله إلى علام الغيوب (٢).

ومن رؤية النعيم رؤية الولدان المخلدون في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

والمعنى: «إذا رأيت يا محمد هؤلاء الولدان مجتمعين أو مفترقين، تحسبهم في حسنهم، ونقاء بياض وجوههم وكثرتهم، لؤلؤًا مبددًا، أو مجتمعًا مصبوبًا» (٣).

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٩٩.

(٢) تفسير المراغي ٢٩/ ١٧٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١١.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٤٦.

(٥) تفسير المراغي ٢/ ٤٠.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤].

قال أبو جعفر الطبري: «ولو أن لكل نفس كفرت بالله، وظلمها في هذا الموضع عبادتها غير من يستحق عبادته، وتركها طاعة من يجب عليها طاعته ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من قليل أو كثير ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ يقول: لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذا عاينته، وقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يقول: وأخضت رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ يقول: وقضى الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وذلك أنه لا يعاقب أحداً منهم إلا بجريرته، ولا يأخذه بذنب أحد، ولا يعذب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه الحجج»^(١).

ومن المفسرين من قال بأن الأسرار في الآية المراد به الإظهار، أي: إظهار الندامة؛ لأن الأسرار من الأضداد الذي يتناول الإخفاء والإظهار؛ لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة، وفي القيامة بطل هذا الغرض

فوجب الإظهار^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].

يقول تعالى ذكره مخبراً عن هؤلاء المشركين الذين كانوا يهزءون برسول الله صلى الله عليه وسلم: إنهم يقولون إذا رأوه: قد كاد هذا يضلنا عن آلهتنا التي نعبدها، فيصدنا عن عبادتها لولا صبرنا عليها، وثبوتنا على عبادتها.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يقول جل ثناؤه: سيبين لهم حين يعاينون عذاب الله قد حل بهم على عبادتهم الآلهة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يقول: من الراكب غير طريق الهدى، والسالك سبيل الردى أنت أو هم؟^(٣).

كما أن الله تعالى يأمر المشركين أن يدعوا شركاءهم حين يروا العذاب، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَمْنُونُ﴾ [القصص: ٦٤].

والمعنى: وقيل للمشركين بالله في الدنيا: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين كنتم تدعون من دون الله من الآلهة والأنداد ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧ / ٢٦٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩ / ٢٧٤.

(١) جامع البيان ١٥ / ١٠٣.

مهانين بسبب ما لحقهم من الذل^(٤).
وقد أخبر تعالى بأن الكافرين لا يؤمنون
حتى يروا العذاب الأليم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ
أَنْتَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ
أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

ومعناه: فلا يصدقوا بتوحيد الله ويقروا
بوحدايته، حتى يروا العذاب الموجع^(٥)،
قيل: هذا بمعنى الدعاء (كأنه) قال: فلا آمنوا
حتى يروا العذاب الأليم، وقيل: معناه معنى
الخبر^(٦).

يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴿يَقُولُ: فَلَمْ يَجِيبُوهُمْ﴾ ﴿وَرَأَوْا
الْعَذَابَ﴾ يقول: وعابنوا العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ
كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ يقول: فودوا حين رأوا العذاب
لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق^(١).

وحين يرى الظالمون العذاب يوم القيامة
يطلبون الرجوع إلى الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ
يَقُولُونَ هَلْ إِنَّ مَرَجِرَ مِنْ سَبِيلِ﴾ [الشورى: ٤٤]^(٢).

أي: وترى الكافرين بالله حين يعابنون
العذاب يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا
ويقولون: هل من رجعة لنا إليها؟

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا
عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِمَا كُنَّا رِيسًا وَنَكُونُ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣٧] بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ
وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾
[الأنعام: ٢٧-٢٨]^(٣).

والمراد: أنهم يطلبون الرجوع إلى
الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب، ثم
ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال:
﴿وَتَرَىٰ لَهُمْ يَعْزُضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِيلِ
يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

أي: حال كونهم خاشعين حقيرين

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/٦٠٨.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/١٨٢.

(٦) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/٤٠١.

(١) انظر: المصدر السابق ١٩/٦٠٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/١٩٦.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٥/٥٨.

أثر الرؤية على النفس

في القرآن الكريم آثار للرؤية كثيرة على النفس، أهمها ما يأتي:

أولاً: الإيمان والتقوى:

وهذا الأثر ناتج عن النظر فيما يقدم الإنسان لليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِي هُوَ أَمْتٌ مِمَّنْ آتَقُوا اللَّهَ وَنَتَنَظَّرُ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أي: لينظر أحدكم إلى شيء قدم لنفسه من الأعمال عملاً صالحاً ينجيه أم سيئاً يوبقه، والمراد بالغد يوم القيامة، وقربه على الناس كأن يوم القيامة يأتي غداً، وكل ما هو آتٍ فهو قريب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وكرر الأمر بالتقوى تأكيداً، وقيل: معنى الأول: اتقوا الله في أداء الواجبات، ومعنى الثاني: واتقوا الله فلا تأتوا المنهيات ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: تركوا أمر الله فأنساهم أنفسهم، أي: أنساهم حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيراً ينفعها وعنده ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

ثانياً: العمل لليوم الآخر:

وهذا الأثر يأتي من خلال معرفة أن يوم القيامة هو اليوم الحق الذي ينظر المرء ما

قدم له، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَاباً﴾ (٣٩) ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَاباً﴾ [النبا: ٣٩-٤٠].

﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة، وهو يوم يقوم الروح والملائكة صفاء ﴿الْحَقُّ﴾ يقول: إنه حق كائن لا شك فيه، وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَاباً﴾ يقول: فمن شاء من عباده اتخذ بالتصديق بهذا اليوم الحق، والاستعداد له، والعمل بما فيه النجاة له من أهواله ﴿مَتَاباً﴾، يعني: مرجعاً، وهو مفعول من قولهم: آب فلان من سفره.

﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ يقول: «إننا حذرناكم أيها الناس عذاباً قد دنا منكم وقرب، وذلك ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ المؤمن ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من خير اكتسبه في الدنيا، أو شر سلفه، فيرجو ثواب الله على صالح أعماله، ويخاف عقابه على سيئها»^(٢).

ثالثاً: العظة والعبرة:

وهذا الأثر يحصل لصاحب النفس الذي يسير في الأرض فينظر كيف عاقبة المكذبين.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧٩/٢٤.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/٢٧٦.

يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي، كما أن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض ورأوا آثار الذين خلوا يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن ويفيده عظة واعتباراً، فتحصل العظة والعبرة، ولكنها تكون دون اعتبار الذين يسرون في الأرض بأنفسهم، ويرون الآثار بأعينهم^(٣).

رابعاً: الإحسان والإخلاص في القول والعمل:

من آثار موضوع الرؤية في القرآن الإحسان والإخلاص في القول والعمل؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: (يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر)، قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: (الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان)، قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك)^(٤).

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١٧/٤، تفسير المراغي ٧٧/٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، رقم ٥٠، ١٩/١، ومسلم في

من قلوبهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ﴿١٩﴾ [يوسف: ١٠٩].

فإن معرفة هلاك الأمم السابقة تدفع المؤمن للعمل بما يخالف أعمال أمم الذين من قبلهم من المكذبين بالرسول والآيات، أو من من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها، فيقلعوا عن حبها، ويعملوا للحياة الآخرة، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

أي: يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير^(١).

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

أي: مضت من قبلكم سنن، أي: وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين، فسيروا في الأرض التي فيها ديارهم الخربة وآثار إهلاكهم، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، أي: وقيسوا بهم عاقبة اللاحقين بهم في الهلاك والاستئصال، والأمر بالسير والنظر؛ لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثراً في الاعتبار والروعة، أقوى من أثر السماع^(٢).

والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم هو الذي

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١٧٩/٣.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤١٦/٢.

قال الإمام النووي في شرح الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، هذا من جوامع الكلم التي أوتيتها صلى الله عليه وسلم؛ لأننا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمات واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهاها إلا أتى به، فقال صلى الله عليه وسلم: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخضوع والخشوع وغير ذلك»^(١).

خامساً: التفقه في الدين:

وهذا الأثر يحصل من خلال أن النظر والرؤية، هي وسيلة الحصول على العلم، فقد أخبر تعالى بأنه هو الذي يري عباده

الأدلة العلمية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

والمعنى: هو الذي يريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته^(٢). وآيات الله: تعم آيات قدرته وآيات قرآنه والمعجزات الظاهرة على أيدي رسله^(٣).

ومثل الآية قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

فرؤية الآيات هي العلم الذي جعله الله^(٤).

وعلى الرؤية والنظر بنى الفقهاء والعلماء الكثير من الأحكام والاجتهادات الفقهية، وعلى الرؤية والاختلاف فيها ظهرت المدارس والمذاهب الفقهية.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البصر، التفكير، الرؤيا، السير، العبرة، العقل، العين

(٢) جامع البيان، الطبري ٣٦٢/٢١.

وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ١٠/٥.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥٥٠/٤.

(٤) جامع البيان، الطبري ٤٤٤/١٨.

صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان،

والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم ٨،

٣٦/١.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٧/١.